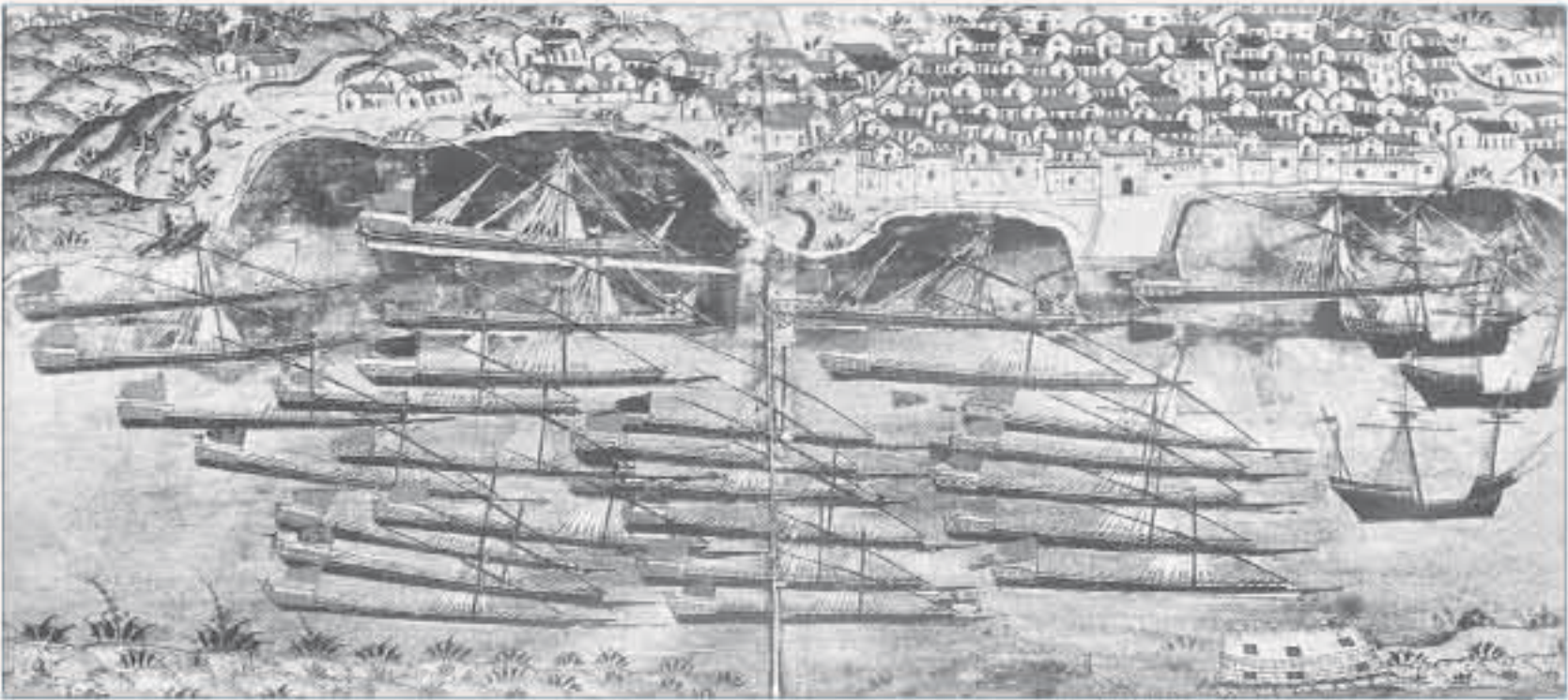


أصاب أوروبا بالملع.. وأعاد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط

خير الدين بربروس .. أمير البحار



صورة توثق وجود خير الدين بربروس في ميناء طولون الفرنسي



خير الدين بربروس

الأسطول الفرنسي المكوّن من أربع وأربعين قطعة تحت إمرة خير الدين، وتصرّف الأسطولان إلى ميناء «نيس»، ونجّسا في استعادة الميناء الفرنسي في (21 من جمادى الأولى 950هـ= 22 من أغسطس 1543م).

ميناء طولون قاعدة إسلامية

ونظراً للعلاقة الحسنة التي كانت تربط السلطان سليمان القانوني بفرانسوا الأول؛ فقد تم عقد معاهدة بين الدولتين بعد استعادة ميناء نيس في (16 من جمادى الآخرة 950هـ= 16 من سبتمبر 1543م)، تنازلت فيها فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها لإدارة العثمانية، وتحول الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة بحرية إسلامية للدولة العثمانية، التي كانت في حاجة ماسة إليه؛ حيث كان الأسطول العثماني يهاجم في غير هوانة الأصداف العسكرية الإسبانية، التي كانت تهدّد دول المغرب الإسلامي والملاحقة في البحر المتوسط.

وفي الفترة التي تم فيها تسليم ميناء طولون إلى الدولة العثمانية أخذ الشغل الفرنسي من جميع سكانه بأوامر من الحكومة الفرنسية، وتحول إلى مدينة إسلامية عثمانية، رُفع عليها العلم العثماني، وارتفع الأذان في جنات المدينة، وخلال ثمانية أشهر شنّ العثمانيون هجمات بحرية ناجحة بقيادة خير الدين على سواحل إسبانيا وإيطاليا.

وفاة خير الدين بربروس كانت هذه الحملة المخفّرة هي آخر حملة يقودها خير الدين بربروس، فلم تطل به الحياة بعد عودته إلى إسطنبول؛ حيث توفّي في 5 من جمادى الأولى 953هـ= 4 من يوليو 1546م عن 65 عاماً في قصره المطل على مضيق البوسفور بالأساطنة، مسطراً صفحة جديدة من صفحات التضحية والفداء والإخلاص للإسلام، وردع القوى الصليبية الباغية.



قام بربروس بأمر ستة آلاف مقاتل إسباني وعاد بهم إلى الجزائر

خير الدين بربروس يغزو فرنسا

كانت فرنسا ترتبط بعلاقات وثيقة مع الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني؛ ولذلك لم يتأخّر السلطان عن تقديم المساعدات الحربية التي طلبها منه فرانسوا الأول ملك فرنسا؛ وذلك أثناء الحرب التي اشتعلت من جديد بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس حول لوفية ميلان شمال إيطاليا.

كلف السلطان سليمان القانوني قائده الياسل خير الدين بربروس بقيادة الحملة، وكانت هذه آخر مرة يقوم فيها إحدى حملاته المخفّرة، فغادر إسطنبول في 23 من صفر

950هـ= 28 من مايو 1543م على رأس قوة بحرية كبيرة. استولت -وهي في طريقها إلى فرنسا- على مدينتي «مسيّة» التابعة لصقلية، و«ريجيو» الإيطالية دون مقاومة، ثم استولت على ميناء «أوستيا» الإيطالي، في 5 من جمادى الأولى 953هـ= 4 من يوليو 1546م عن 65 عاماً في قصره المطل على مضيق البوسفور بالأساطنة، مسطراً صفحة جديدة من صفحات التضحية والفداء المستقيمة لهم الأعلام العثمانية، وطلعت مدافعها تحية لها. ودخل

أوروبا؛ استجابة لنداء البابا في روما، فتكوّن تحالف صليبي من 600 سفينة، تحمل نحو ستين ألف جندي، وبقوده قائد بحري من أعظم قادة البحر في أوروبا هو «أنديرا دوريا»، وتألّفت القوات العثمانية من 122 سفينة، تحمل اثنين وعشرين ألف جندي، والتقى الأسطولان في برورة في 4 من جنّادى الأولى 945هـ= 28 من سبتمبر 1538م، وهاجما خير الدين خصمه قبل أن يأخذ أهيته للقتال، فتفرّقت سفنه من هول الصدمة، وهرب القائد الأوروبي من ميدان المعركة؛ التي لم تستمر أكثر من خمس ساعات، تمكّن في نهايتها خير الدين بربروس من حسم المعركة لصالحه.

معركة برورة خير الدين بربروس وجهاده ضد الأسطول الإسباني

وقد أثار هذا النصر الفرع والبلع في أوروبا، وأعاد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط، في الوقت الذي استقبل فيه السلطان سليمان القانوني أنباء النصر بفرحة غامرة، وأمر بإقامة الاحتفالات في جميع أنحاء دولة.

لإسلام، وتشجيعاً لمجاهدي شمال إفريقيا على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية، واستنقاذ المسلمين الأندلسيين؛ ولهذا تصرّف على الفور، وقاد حملة جزّارة على تونس، تمكّنت من الاستيلاء عليها في السنة نفسها، وردّ خير الدين على هذا الانتصار بغارة مفاجئة على جزر البليار في البحر المتوسط، فأسر ستة آلاف من الإسبان، وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر. ووصلت أنباء هذه الغارة إلى روما وسط احتفالات البابوية بالتزاع تونس من المسلمين.

خير الدين بربروس وقيادة الأسطول العثماني

أراد السلطان سليمان القانوني مكافأة خير الدين على جهوده وخدمته للإسلام، فعيّنه قائداً عاماً للأسطول العثماني، وجعل ابنه حسن باشا والياً على الجزائر، الذي واصل جهود أبيه في مهاجمة الإسبان في غرب البحر المتوسط.

وقاد خير الدين بربروس عدة حملات بحرية موفقة، كان من أشهرها انتصاره العظيم في معركة برورة بالبحر المتوسط؛ لقد كانت معركة هائلة تداعت لها

فنتكلمهم في سنة (936هـ= 1529م) مستخدماً أسطولاً من 36 سفينة؛ وذلك في سبع رحلات، ووطنهم في مدينة الجزائر؛ وهذا ما حصّنها ضدّ الهجمات الإسبانية.

خير الدين في إسطنبول

قام السلطان سليمان القانوني باستدعاء خير الدين بربروس إليه في إسطنبول، وعهد إليه بإعادة تنظيم الأسطول، والإشراف على بناء عدد من سفنه، ثم وُكل إليه مهمة ضمّ تونس إلى الدولة العثمانية، قبل أن يتمكن السلطان الإسماني شارل الخامس من الاستيلاء عليها، وكانت ذات أهمية كبيرة لموقعها المتوسط في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط.

غادر خير الدين العاصمة العثمانية على رأس ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي، وأنجبه إلى تونس، ونجح في القضاء على الدولة الحفصية التي كانت تحكم تونس، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية سنة (941هـ= 1534م).

أثار هذا النصر شارل الخامس وزاده حقاً، ورأى فيه تهديداً للمواصلات البحرية التي تربط بين إيطاليا وإسبانيا، وانتصراً

في شعبان 924هـ= أغسطس 1518م)، وخلفه أخوه الأصغر خير الدين.

ولاية خير الدين بربروس على الجزائر

خلف خير الدين بربروس أخاه في جهاده ضدّ الإسبان، ولم تكن قواته تكفي لمواجهة خطر الإسبان، فاستنجد بالدولة العثمانية طالبا العون منها والمدرّة؛ فلتى السلطان سليم الأول عليه، وبعث إليه بؤّة من سلاح المدفعية، وأمدّه بالفلين من جنوده الانتشارية الأشداء، ثم واصل السلطان سليمان القانوني هذه السياسة، ووقف خلف خير الدين يمدّه بالرجال والسلاح، ولم يكن خير الدين أقل حماسة وغيرة من أخيه، فواصل حركة الجهاد، وتابع عملياته البحرية؛ حتى تمكّن من طرد الإسبان من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر، وضمّ إلى دولته مناطق جديدة، وقادته رغبته الجاحدة في مطاردة الإسبان إلى غزو السواحل الإسبانية، وهذا الذي أفرغ الغرّة، وألقى البلع في قلوبهم، ثم قام خير الدين بعمل من جلائل الأعمال؛ حيث انتقد سبعين ألف مسلم أندلسي من قبضة الإسبان؛ الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب،

الفرصاة الأوروبيين. في حوالي عام 1505م استطاع عروج الاستيلاء على 3 مراكب، واتخذ من جزيرة جربة في تونس مركزاً له، ونقل عملياته إلى غرب المتوسط.

طبقت شهرة عروج الأفاق عندما استطاع بين عامي 1504 و1510م إنقاذ الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى شمال إفريقيا، وفي عام 1516م استطاع تحرير الجزائر ثم تونس من الإسبان، وأعلن نفسه حاكماً على الجزائر، واستطاع عروج أن يُقيم حكومة قوية في الجزائر، وأن يطرّد الإسبان من السواحل التي احتلّوها، ويوسع من نطاق دولته حتى بلغت تونس، وفي هذه الأثناء اتصل بالسلطان العثماني سليم الأول، وكان قد تمكّن من ضمّ مصر إلى دولته، وأعلن عروج طاعته وولائه للدولة العثمانية.

غير أن إسبانيا هالها ما بلغه عروج ورجاله، وراى في ذلك خطراً يهدّد سياستها التوسعية، ويقضي على أحلامها ما لم تنهض لقمع هذه الدولة الفتنة، فأعتت حملة عظيمة بلغت خمسة عشر ألف مقاتل. تمكّنت من التوغّل في الجزائر ومحاصرة تونس، ووقع عروج أسيراً في أيديهم، وقتلوه

هو خير الدين بربروس قائد الأساطيل العثمانية؛ مجاهد بحري، اشتهر مع أخيه عروج بغزواته البحرية في سواحل اليونان وإسبانيا وإيطاليا، انتزع مدينة الجزائر من إسبانيا، وجعلها تحت سيادة الدولة العثمانية، كما غرّا تونس سنة (941هـ= 1534م)، واستولى عليها لصالح العثمانيين. وأسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب، ولقبه خير الدين باشا، بينما عرف لدى الأوروبيين ببارباروسا (ذو الحية الحمراء).

نشأة خير الدين بربروس

وُلد خير الدين بربروس في جزيرة لسبوس في اليونان، كان الأصغر في أربعة إخوة؛ إسحاق وعروج والخامس ومحمد، والده هو يعقوب وهو انتكاري أو سياهي المسيحية؛ فقيل: إنها كانت أرملة قس.

وقد كان خير الدين وأخوه عروج نصرانيان، ويعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما، وبخلاف في خدمة السلطان محمد الحفص في تونس. وكانا يعرضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان زكاتها وعملاتها رقيقاً، وقد أرسل السلطان العثماني سليم الأول إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزّل لهما العطاء، فقويت نفسيتهما، وعمل الإخوة الأربعة كبحارة ومقاتلين في البحر المتوسط ضدّ قرصنة فرسان القديس يوحنا، المتمركزين في جزيرة رودس.

جهاد عروج بربروس

قُتل الياس في إحدى المعارك وأسر عروج في رودس، الذي ما لبث أن فرّ منها إلى إيطاليا ومنها إلى مصر، استطاع عروج أن يحصل على مقابلة مع السلطان قانصوه الغوري، الذي كان يصدّد إعداد أسطول لإرساله إلى الهند لقتال البرتغاليين. أعطى الغوري عروج سفينة بجندهما وعاداهما لتحرير جزر المتوسط من



خير بربروس



تحول الميناء البحري لفرنسا إلى قاعدة بحرية إسلامية للدولة العثمانية